تصوف جبران في كتابه «حديقة النبي»

أ. د. علي حيدر(*)

مقدمة:

كان كتاب «حديقة النبي»[1] آخر ما نُشِر من أعمال جبران خليل جبران ، وقد صدر بعد وفاته ، فأثيرت ضجة حول أهمية هذا الكتاب ، لأن جبران تركه مخطوطًا ، ولأن السيدة «يونغ» التي أشرفت على إصداره قد أدخلت فيه ما ليس منه ، وأن جبران لم يكن راضيًا عنه لذلك لم يصدره في حياته[2].

لكن بمقارنة بسيطة ، بين نهاية كتابه «النبي»[3] وبداية كتابه «حديقة النبي» نرى أن جبران قد أعدّ هذا الكتاب ليكون تتمة لكتابه «النبي». فقد كانت خاتمة «النبي» بمشهد السفينة والربان وعلى متنها النبي ، وهو يَعدُ قومه باللقاء ثانية[4]. أما كتاب «حديقة النبي» فيبدأ بمشهد وصول سفينة تقلُّ النبي إلى الميناء ، حيث تنتظر الحشود عودته ، ويبدأ النبي خطابه لهذه

* أستاذ في قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

الحشود[٥]. فالحلقة متصلة ، وخاتمة كتاب «النبي» تشبه إلى حد التطابق بداية كتاب «حديقة النبي».

أما أسلوب جبران في الكتابين فهو واحد ، فالنبي يقف مخاطبًا الجموع ، واعظًا أو مجيبًا على سؤال موجه إليه. وطريقة هذا الخطاب لم تكن متأثرة بطريقة يسوع في مخاطبة الناس فحسب[٦] ، بل قد يكون جبران متأثرًا أيضًا بطريقة «نيتشه» في كتابه «هكذا تكلمّ زرادشت»[٧].

وفي هذا البحث نحاول أن نرصد نقاط الالتقاء بين جبران والمتصوفة المسلمين خاصة من خلال كلامه على الذات الإلهية ، ومن خلال المقاطع التي توحي بانتمائه إلى مذهب وحدة الوجود ، وأخيرًا من خلال ما يظهر في هذا الكتاب من تقاطعات مع المتصوفة في مبادئهم وأفكارهم.

١ - الذات الإلهية:

نعتقد أن جبران قد وصل في كتابه «حديقة النبي» إلى خلاصة فلسفته في فهم الوجود ، وهي فلسفة متأثرة بالتصوف ، ولاسيما بالتصوف الإسلامي ، في تصوره لماهية الذات الإلهية ، أو ما يُعرفُ بالذات المطلقة.

كان جبران قد استخدم رمز «البحر» للإشارة إلى هذه الذات المطلقة ، في بعض كتبه ولاسيما في كتاب «النبي»[٨]. وفي بداية كتابه «حديقة النبي» يبدأ باستخدام رمز «البحر» للإشارة إلى الذات الإلهية قائلاً[٩]:

«لقد لفظنا البحر مرة أخرى إلى هذه الشطآن ، وما نحن سوى موجة من موجاته ، دفع بنا لنردد كلامه».

قد يكون البحر الذي ألقى بهم على الشطآن إشارة إلى انفصال الروح البشرية عن عالمها العلوي الساكن الهادئ ، لتخوض تجربة الحياة الدنيوية.

لكن قوله «مرة أخرى» هو إشارة واضحة إلى اعتقاده بتعدد الحيوات، فالروح تسكن الجسد ثم تفارقه راغمة، وقد تعود مرة أخرى إلى جسد آخر، وقد تعود مراتٍ إلى أن تبلغ حَدَّ الكمال، فتلحق آمنة مطمئنة بعالمها العلوي.

أما قوله «لنردد كلامه» فهو إشارة إلى ما يعتقده المتصوفة المسلمون بأن الإنسان هو المخلوق الوحيد القادر على إظهار كمالات الذات الإلهية، لذلك فهو غاية الوجود، وبزواله يزول هذا الوجود المحسوس.

كذلك توحي دلالة هذا الخطاب بالجبر الذي يعتقد المتصوفة المسلمون ولاسيما ابن عربي بأنه قانون الوجود العام، إذ يرى ابن عربي أن هناك أمرين يحكمان الوجود المحسوس، الأمر التكليفي المتعلق بأوامر الشرع، فمن التزم به سُمي طائعًا وإلا كان عاصيًا، والأمر التكويني، وهو الأمر الذي يرسم حياة المخلوق من بدايتها إلى نهايتها عندما يكون في عالم الأعيان الثابتة «عالم المثل»[١٠].

ويذكر جبران رمز البحر ثانية في قول النبي[١١]:

«... ولكن البحر الذي تبعكم من بعد، وظلت أغانيه تفعم قلوبكم، وسيظل إلى الأبد يحنو عليكم...».

يعلن النبي، هنا، بأن الذات الإلهية هي البحر الذي يسع كُلَّ شيء، وهو الذي سيظل ينادي مخلوقاته ليأتوا إليه، ويذوبوا في لجته. وهو أيضًا من أقوال المتصوفة، لكن نجد أن العلاقة في هذا الكلام، بين الذات ومحدثاتها، هي علاقة تجاذب وحنين واشتياق، وليس هناك تمايز بين الطرفين، وهذا، أيضًا، داخل في اعتقاد المتصوفة.

وتشبيه الذات الإلهية بالبحر نجده ، أيضًا ، عند ابن عربي الذي يصف هذه الذات بأنها بحر لا ساحل له ، وعلم الإنسان بها أشبه بعلم الواقف على شاطئ بحر ، لا يرى منه سوى أمواج تتلاطم على الشاطئ ، وهو يجهل ما في عرضه وأعماقه[١٢]. ويستخدم جبران ، أيضًا ، رمز «الحياة» للإشارة إلى الذات الإلهية ، فيقول[١٣]: «الحياة أقدم من جميع الكائنات الحية».

وهذا الكلام إشارة إلى الذات الإلهية في أمرين أثنين: الأول أنه استخدم رمز الحياة ، مستفيدًا من إحدى الصفات الذاتية للذات الإلهية وهي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر. فالذات حية ، ولولا ذلك لانتفى وجودها أصلاً. أما الأمر الثاني ، فالذات قديمة ، وهي من أخص صفاتها ، لا يشاركها في ذلك أحد ، وإلا انتفى عنها صفة الواحدية.

ومما يؤكد هذه القراءة أن جبران يسترسل في وصف الحياة قائلاً[١٤]:

«الحياة عميقة وسامية ، ونائية وغامضة ، وإنها مع ذلك ، لقريبة ، وإن كان نظركم الواسع لا يستطيع أن يبلغ إلا أقدامها ، وإن ظِلّ ظلكم يعترض طلعتها...».

كلام جبران هذا محاولة لتعريف الذات الإلهية ، التي يرى المتصوفة أنها لا توصف ولا تُحدُّ ، وهي تجمع كُلّ المتناقضات ، لذلك فهي سامية وعميقة ، وغامضة ، وهي نائية وقريبة منا في آن واحد. والإنسان ، بطبيعته ، عاجز عن إدراكها مهما حاول ذلك ، وهو لا يدرك منها سوى ما يدركه من المحدثات التي تتجلى فيها هذه الذات ، وهذا ما يراه المتصوفة أيضًا[١٥].

ومما يرجح هذه القراءة قول جبران: «إن ظل ظلكم يعترض طلعتها» ، فهذا إشارة إلى جسد الإنسان وعقله ، اللذين يرى فيهما المتصوفة حاجبين يحجبان الذات الإلهية عنا ، ويمنعاننا من رؤيتها عيانًا[١٦].

ويسترسل جبران في تفسير ما يقصده بالحياة قائلاً[١٧]:

«الحياة مقنعة "ومخبأة" ، تمامًا ، كما هي روحكم الكبرى مقنعة وخافية».

وفي هذا القول دلالة صوفية واضحة نرى استحالة معرفة كفه الذات الإلهية ، لكن ذكره للروح الكبرى قد تعني الروح الكلي الخالد ، أو الروح العام للذين يشيران إلى 'النفس الكلية' التي هي مصدر جميع الأرواح. وقد تعني الروح الكبرى روح الإنسان نفسه في حالة بلوغها الكمال.

وعلى الرغم من احتجاب الذات الإلهية ، فهي تعلن عن وجودها ، وتتكلم. يقول نبي جبران[١٨]:

«عندما تتكلم الحياة تتحول ، مع ذلك ، الرياح جميعها إلى كلمات ، وحين تتكلم ثانية ، تتحول البسمات على شفاهكم ، والدموع في عيونكم إلى كلمات أيضًا...».

كلام الذات الإلهية ما هو إلا إعلان عن وجودها ، ويكون ذلك بحروف وكلمات وجودية يراها المتصوفة في تجلي الذات الإلهية في صور مخلوقاتها[١٩]. وهذا التجلي يبدو في كل محسوس ، في حركة الريح ، وفي البسمة ، والدمعة ، والزهرة ، وفي كل شيء لكن إدراك مثل هذه الأمور لا يكون بحواس الإنسان ، ولا بفكره وعقله ، وإنما هي أمور يدركها قلب المؤمن بعقيدة المتصوفة.

بعد ذلك يستخدم جبران لفظ الجلالة «الله» محاولاً تعريفه بعد أن سُئل عن ماهيته ، فقال على لسان نبيه[٢٠]:

«فكروا الآن ، أيها الرفاق الأحباء ، في قلب يحوي قلوبكم جميعًا ، في حب يحيط بكل حُبٍّ يخالجكم ، في روح تُغلفُ أرواحكم كلها... فيما هو سرمدي».

وفي هذا الكلام ، إشارة إلى أن كلَّ شيء في الله ، والله في كل شيء ، وهو قلب يتسع لكل القلوب ، وهو محبة ، وهو روح مطلقة ، وكأنه يشير إلى رحمة الله التي وسعت كل شيء ، أو إلى النَّفَسَ الرحماني الساري في الوجود[٢١]. ولا نجد في هذا الوصف ما يختصُّ بالذات الإلهية إلا وصفها بأنها سرمدية ، أي هي قديمة أزلية لا أول لها ولا أخر ، وهي صفه لا يشاركها فيها مُحدثُ . ويتابع جبران وصفه للفظ جلاله «الله» قائلاً[٢٢]:

«ثم حاولوا أن تدركوا ، في كمال ذاتكم ، جمالاً أبهى من جميع الأشياء البهية ، ونشيدًا أرحبَ من نشيد البحر والغابة ، وجلالاً يقيم على عرشٍ ، كوكبة الجبار أمامه ، ليست سوى موطئ قدم ، وبيده صولجان ليست حياله ، نجوم الثريا سوى وميض لقطرات ندى...».

يحاول جبران ، هنا ، أن يرجع أمر إدراك الله إلى الذات البشرية ، لكنها ذات وصلت إلى حال من الصفاء والكمال يجعلانها قادرة على إدراك جمال مطلق لا يقاس بالجمال المحسوس ، ونشيد خفي صامت يسري في الموجودات ، لا تدركه إلا ذات بلغت مرحلة متقدمة من الصفاء الروحي ، والكمال الذاتي.

وإذا كان جبران يرى الله جمالاً مطلقًا ، فإنه يضيف نقيض ذلك ، وهي صفة الجلال التي تشير إلى الرهبة والخوف. ولا يمكن فهم هذه الصفة إلا من خلال الذاكرة الجمعية والتراث الديني ، وهي صورة الملك الجالس على عرشه ، وبيده صولجان مرصع باللآلئ[٢٣]. وهذه صورة توحي بالعظمة والرهبة ، وهو ما حاول جبران أن ينفيه عن الذات الإلهية ، لكن هذه الصورة تظهر رغمًا عنه ، لأن موروثه الثقافي والديني يظهر من حين إلى آخر في كلامه.

أما التأثير الصوفي في هذا الكلام فيبدو في تقسيم الصفات أو الأسماء الإلهية إلى صفات جمال وجلال ، ومن خلال هذه الصفات تتجلى الذات الإلهية في مخلوقاتها[٢٤].

ثم يطلب نبي جبران من أتباعه أن ينشدوا الله ، وأن يتقربوا إليه قائلاً[٢٥]: «فانشدوا ... أن تخشع قلوبكم وتنكسر ، وأن تسوقكم ضراعاتكم إلى حبّ العلي الأعلى وحكمته ، إلى ذلك القدير الذي يدعوه الناس "الله"».

«خشوع القلب وانكساره ، وتذلل العبد وتضرعه وإخلاصه للوصول إلى حب العلي القدير ، هو ما ينصح به الفكر الديني التقليدي ، وهو ما نصح به المتصوفة أتباعهم. وهنا يرسخ جبران عبودية العبد ، وتعالي الذات الإلهية ، وكأنه يعود لتكريس ضعف الإنسان وعجزه أمام قدرة مطلقة ، متناسيًا ما بشرّ به عن ألوهية الإنسان»[٢٦] ، ومناقضًا قوله في المقطع التالي:

«لنقف الآن عن الكلام في شأن العلي الأعلى رَبّ الأرباب ، ولنتكلم عن الأرباب من جيرانكم وإخوانكم...».

وقد يُفهم من هذا الكلام أن الإنسان رَبّ لكنه ليس مطلق القدرة ، وإنما هناك رَبٌّ أعلى منه يتحكم في مصيره ، وكأن هناك إشارة للقبس الإلهي الكامن في الإنسان الذي يمنح الإنسان هذه الصفة ، وقد يفهم أيضًا من كلام جبران هذا ، أن الحديث عن الله لا يكون إلا بالحديث عن مخلوقاته التي تدل عليه ، لأنه تجلى فيها ، ومما يرجح هذه القراءة أن جبران يختم حديثه عن الله قائلاً[٢٧]:

«لقد كان من الأحكم يا أصدقائي وبجارتي ، أن يَقُلَّ كلامنا عن الله ، الذي لا نستطيع أن نفهمه ، ويكثر حديثنا بعضنا عن بعض ، إذ يتاح لنا أن نتفاهم...»

وهكذا يكون جبران قد وصل إلى ما وصل إليه المتصوفة ، من أننا لا يمكن لنا أن نفهم الذات الإلهية ، لأنها فوق كل وصف أو تعريف ، وعندما ندرك ذلك نكون قد وصلنا إلى الحقيقة[٢٨] ، وأننا لا يمكن أن نفهم شيئًا عن هذه الذات إلا ما ندركه من أنفسنا ومن بقية المحدثات ، وكأنه يشير إلى القول المشهور: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[٢٩].

٢- تأثير فلسفة وحدة الوجود في الكتاب:

في كتابه حديقة النبي تظهر فلسفة جبران واضحة ، فهي مزيج من اعتقادات متعددة ، فهو متصوف ، لكن أفكاره مستمدة من فلسفة وحدة الوجود[٣٠] ، في معظم الأحيان ، وهو متأثر بعقيدة التقمص التي يبدو أنه أخذها عن الفلسفات الشرقية[٣١]. وسنحاول ، هنا ، أن نرصد ما يستمده جبران من فلسفة وحدة الوجود. يقول جبران على لسان نبيه المصطفى[٣٢]:

«دعوا الذي يبتغي الحكمة ينشدها في زهرة الأقحوان الأصفر ، أو في حفنة من الطين الأحمر».

وإذا كانت الحكمة تعني فهم الذات الإلهية ، فإننا يمكن أن نقرأ هذا الكلام على أنه يلخص جوهر وحدة الوجود ، الذي يرى أن الله متجلٍ في كل شيء. وأن الله والموجودات شيء واحد ، فالطين والحجر والزهر والكواكب وغيرها كلها تجليات للذات الإلهية ، وهي تحمل باطنًا إلهيًا كغيرها من المخلوقات الحية الأخرى ، وهي كلها ستعود ، في النهاية ، إلى مصدرها إلى واحد أحد.

وكما يرى المتصوفة ، يرى جبران أن هذه الحقائق باطنة تخفى على معظم الناس ، ولا بُدَّ أن يأتي يوم تتكشف فيه هذه الحقائق. يقول المصطفى نبي جبران[٣٣]: «... وكذلك هو شأن الثلج في قلبك ، فإنه سيذوب عندما يأتي ربيعك ، وكذلك يجرى سِرُّك سواقي تنشد نهر حياتك في الوادي ، وسيلفُّ النهر سرَّك ، ويحمله إلى الخضم الكبير».

هذا الكلام يرمز إلى يوم إنكشاف الحقيقة ، يوم تذوب كل الحجب والحواجز ، فيسطع نور الحقيقة ، ويعود كل شيء إلى مصدره إلى الذات الإلهية.

وربما يرمز جبران ، بالثلج في القلب ، إلى الجهل بالحقائق الباطنة ، ويرمز بالربيع إلى عودة الإنسان إلى مصدره وهو لا ينسى أن يذكرنا بمراحل هذه العودة ، فالسر هو النفس البشرية تنطلق سواقي إلى النهر ، والنهر يمكن أن يكون النفس الكلية التي ستحمل جميع النفوس الأخرى إلى الخضم الكبير ، إلى الذات الإلهية. بعد ذلك يتحدث نبي جبران عن الطريق التي

تسلكها النفس البشرية في العودة إلى عالمها الأصلي ، ويبدو أن هذه الطريق تُقطع على مراحل. يقول[٣٤]: «هناك طريق سرية بين شطآن المحيطات ، وذروة أعالي الجبال ، عليكم أن تقطعوها في اللحظة التي تتحدون بها مع أبناء الأرض».

قد ترمز هذه الطريق السرية إلى البحث عن الحقيقة ، وهي تؤدي إلى إدراك الفرد أنه وبقية المخلوقات شيء واحد. هذا ما قصده بالشطآن وذرا الجبال وأبناء الأرض. وهذه الطريق تقود إلى إدراك أن جميع هذه المخلوقات هي تجلٍ لذات واحدة.

وهناك أيضًا طريق خفية ، يقول[٣٥]:

«وهنالك طريق خفية بين معرفتكم ، وفهمكم عليكم أن تكتشفوها في اللحظة التي تتحدون بها مع الإنسان ، ومن ثمة مع أنفسكم».

ويبدو أن هذه الطريق الخفية تكون عندما يدرك الإنسان أنه وأخاه الإنسان ذات واحدة ، وهذه هي تمام المرحلة الثانية من هذه الطريق ، وكما أن جبران يريد أن يقول: إن الانسجام والتآلف مع عناصر الطبيعة هو أسهل مع تآلف الإنسان مع أخيه الإنسان.

لكن جبران يذكر أن هذه الطريق الخفية تقع بين المعرفة والفهم ، وبالعودة إلى مفهوم المعرفة عند المتصوفة نجد أنها تعني العلم على نحو عام ، إلا أنهم اختلفوا في تفاصيل هذا العلم ، وأشهرها أن للمعرفة ثلاثة وجوه هي: معرفة إقرار ، ومعرفة حقيقة ومعرفة مشاهدة[٣٦]. وفي هذه الأخيرة يكون الفهم ، مما يعني أن الفهم لا يكون إلا بعد مشاهدة الذات الإلهية ،

شهودًا أو اتحادًا في مقام أطلق عليه المتصوفة أسماء متعددة منها: مقام الإحسان ، ومقام الجمع ، ومقام الصحو بعد المحو.

ويفهم من كلام جبران أن تلك الطريق السرية ، وتلك الطريق الخفية يمكن سلوكها في الحياة الدنيا. لكن هناك طريقًا أخرى ، لا ندركها إلا بعد الموت ، عندما تزول الحجب وتنكشف الحقائق ، وتظهر الحقيقة ساطعة(٣٧).

ويبدو تقاطع كلام جبران مع ابن عربي واضحًا في قوله(٣٨): «.... كل ما هو كائن يعيش على ما هو كائن ، وكل ما هو كائن يعيش بالإيمان الذي لا ساحل له ، على رحمة العلي القدير».

يري جبران ، هنا ، أن كل ما هو موجود له دور في حلقة الوجود ، يعيش بعضه على بعض ، ولا شيء خُلق عبثًا ، أما الإيمان الذي لا ساحل له ، ورحمة العلي القدير تذكرنا بما قاله ابن عربي في ذلك ، عندما شبه الذات الإلهية بالبحر الذي لا ساحل له. أما رحمة العلي القدير فهي تعني النَّفَسَ الرحماني الساري في الوجود ، يهب المحدثات وجودها ، فإذا انحسر عادت فناءً.

ويؤكد جبران أن كل المحدثات هي أجزاء من كُل ، والعكس صحيح في عقيدة وحدة الوجود. يقول المصطفى(٣٩):

«إن قطرة الندى تعكس النور لأنها هي والنور شيء واحد ، وأنتم تعكسون الحياة ، لأنكم والحياة شيء واحد».

وكان جبران قد رمز بالحياة إلى الذات الإلهية ، ووفق عقيدة وحدة الوجود التي تُوَحّد بين الله ومخلوقاته ، فلا فرق بين قطرة الندى ونور

الشمس ، ولا بين نبات وحيوان ، وكذلك لا فرق بين الإنسان والذات الإلهية فهما شيء واحد ، لأن جميع المخلوقات مظاهر من تجليات الله ، وصفات من صفاته وهذا الأمر يفهم عن طريق الاعتقاد بالظاهر والباطن. يقول المصطفى(٤٠):

«... أنت والحجر شيء واحد ، هنالك فرق وحيد في نبضات القلب ، فإن قلبك ينبض على نحو أدق...».

فهنا يبدو جبران متفقًا تمامًا مع عقيدة مذهب وحدة الوجود التي توحد بين الخالق والمخلوق(٤١). ويترتب على ذلك أن جبران ينفي وجود القبح في المخلوقات ، كما نفاه المتصوفة من قبل ، فيقول(٤٢):

«أليس ما تحسبه قبيحًا هو ذاك الذي لم تجهد قط في بلوغه ، ولا تلهفتَ قطّ إلى ولوجه».

ويؤكد جبران أن ما يقوله هو حقيقة ، إلا أنها حقيقة تستعصي على فهم الذين لا يؤمنون بوحدة الوجود ، لكن لابد أن يأتي يوم يدرك فيه هؤلاء هذه الحقيقة. يقول على لسان المصطفى(٤٣):

«ولكنّ اليوم الذي تُجمع به الحجارة والنجوم ، على نحو ما يجني الولد زنابق الوادي آت قريبًا ، وعند ذلك ستعلم أن جميع الأشياء مفعمة بالطيب والحياة».

ولا شك في أنه يقصد ، بذلك ، يوم الدينونة ، عندما ينتهي الوجود الظاهر ، وتعود المخلوقات إلى مصدرها الإلهي ، ولا يبقى إلا حقيقة واحدة. ويختم جبران كتابه «حديقة النبي» مؤكدًا وحدة المخلوقات والخالق ، قائلاً(٤٤):

«أيتها الغمامة! يا أختي الغمامة! أنا وأنت الآن شيء واحد».

وهذا هو جوهر فلسفة وحدة الوجود الذي اعتنقه جبران ، وكرّس له كثيرًا من كتاباته ، ولاسيما كتابه «حديقة النبي».

٣- تأثيرات صوفية أخرى:

متأثرًا بالتيارات الفلسفية في عصره ، اعتقد جبران أن الوجود على هيئته شجرة. هذه الشجرة تمثل الكون ، جذورها في الأرض يمثلها الإنسان وبقية المخلوقات ، وفروعها في السماوات ، وأوراقها هي العقول والأرواح السماوية[٤٥]. ويبدو أن نظرة جبران إلى هذه الشجرة قد تطورت في آخر كتبه «حديقة النبي» إذ يعود لذكر الشجرة الكونية ، لكنّ مكان الإنسان قد تغيرّ فيها. يقول[٤٦]:

«... نحن أوراق خضر على شجرة الحياة ، والحياة نفسها فوق الحكمة ، وهي قطعًا فوق الجنون».

هنا صار الإنسان ورقة خضراء على شجرة الحياة. وهذه الورقة تحيا بالشجرة ، كما تحيا المخلوقات بالنَّفَسَ الرحماني ، وسقوط هذه الورقة يعني انحسار النَّفَسَ الرحماني عنها. لكن الشجرة تبقى هي لا تتغير ولا تتبدل. وهنا يتبع جبران خُطا المتصوفة بالمقايسة والتشبيه.

ثم طرأ تطور آخر على مفهومه للشجرة الكونية ولموقع الإنسان فيها. يقول[٤٧]: «... نحن الله في الورقة ، في الزهرة ، وأغلب الأحيان في الثمرة».

فالإنسان لم يعد في الجذور ، بل صار ورقة ، ثم ترقى إلى زهرة ، ثم إلى ثمرة ، وهو يشير هنا إلى أن الإنسان هو غاية الوجود ، كما هي الثمرة غاية الشجرة لكن إشارته إلى أن الإنسان ، في أغلب الأحيان ثمرة في شجرة

الكون قد تشير إلى الإنسان الذي بلغ حد الكمال ، أو هو الإنسان الكامل عند المتصوفة المسلمين.

كذلك يلتقي جبران بالمتصوفة في موضوع ثنائية الروح والجسد عندما يقول[٤٨]: «... أنتم أرواح ، وإن كنتم تتحركون في أبدان ، وإنكم لكالزيت الذي يحترق في الظلام ، شُعَلُ وإن حُمِلْتُمْ في مصابيح».

هنا ، يتقاطع جبران مع المتصوفة المسلمين في تفضيل الروح على الجسد ، لأنها إلهية المصدر وخالدة ، أما الجسد فهو صورة فانية. لذلك يؤكد أن الإنسان روح حبيسة قفص الأبدان. وهذه الروح تنير ظلام الجهل. كذلك يؤكد جبران أن الروح حرة ، على الرغم من سجن الجسد ، لا يمكن الحجر عليها ، فهي تطوف في الآفاق وهي باقية في الجسد[٤٩].

ومن التأثيرات الصوفية أن جبران يشدد على فضائل التحمل ، وهذا مستمد من مفهوم التجربة الصوفية التي تقوم أساسًا على الصبر ، وتحمل المشاق لكي يصل الصوفي إلى غاية تجربته ، وهي شهود الذات الإلهية أو الاتحاد بها.

كذلك استعان جبران بالسلوك الصوفي ، واستعار منه موضوع الخلوة ، فأدخل نبيه المصطفى في خلوة من أربعين يومًا وليلة[٥٠].

ويقتضي جبران أثر المتصوفة في التشديد على فردية التجربة الصوفية التي تختلف من فرد إلى آخر ، فالوحدة توقظ الروح ، وتقوي من عزيمة المتصوف ، ويرى جبران أن معاشرة الناس تفقد الإنسان حكمته وتختم على قلبه[٥١].

ومن التأثيرات الصوفية عند جبران ، أن المعبود واحد مهما تعددت أشكال العبادات ، عرف العبد ذلك أو لم يعرف. يقول[٥٢]:

«.... وإنكم ، وإن لم تعرفوا ، أغلب الأحيان ، لأي معنى تتوقون ، فإنما أنتم تتوقون في الحقيقة ، إلى سلامة الرحب الرتيب».

ويترتب على ذلك النظر في موضوع الثواب والعقاب ، وهنا ، يلتقي جبران بابن عربي بالقول: إن جميع المخلوقات مآلهم إلى رحمة الله[٥٣]. يقول جبران في معرض تعريفه للكينونة[٥٤]:

«هي أن تعرف أن القديس والخاطئ أخوان توءمان أبوهما الملك الغفور».

وأخيرًا يأخذ جبران عن المتصوفة مفهومهم للزمن ، فهم يرون أن ليس هناك من أمسٍ ولا غدٍ ، وإنما كل شيء ينحصر في الحاضر ، أي في اللحظة التي تعيشها ، أي «الآن» ؛ فالزمن آنات تترى ، وأحوال تتوالى. يقول جبران[٥٥]:

«ولا تنسَ أن السنين التي حولت البذور إلى غابات ، والديدان إلى ملائكة ، إنما يعود أمرها كله إلى هذا «الآن» ، وكل السنين قائمة في "الآن"».ويبدو أن جبران كان متأثرًا بنظرية النشوء والارتقاء لداروِن ، التي كانت رائجة في عصره. وإذا كنا نعرف أن البذور تتحول إلى غابات ، فإننا لا نعرف عدد الطفرات التي تحتاجها الديدان لتتحول إلى ملائكة.

الخاتمـــة:

من خلال هذا البحث وجدنا أن جبران يسلك في خطابه ، في هذا الكتاب ، مسلك المتصوف في فكره ، لا في حياته العملية. وقد قدّم لنا

تصورًا للذات الإلهية لا يختلف عن تصور أصحاب وحدة الوجود لها ، وكذلك كانت نظرته الفلسفية إلى الوجود وإشكالاته.

وقد مزج جبران بين تصوفه وإيمانه بالتقمص ، فكانت عقيدته مستمدة في فلسفة وحدة الوجود ممزوجة بإيمان واضح بالتقمص.

وقد حاولنا ، في هذا البحث ، الوقوف على نقاط الالتقاء بالتصوف الإسلامي ، ولاسيما بفلسفة وحدة الوجود التي كان يمثلها ابن عربي ، وكانت نقاطًا كثيرة ذكرنا معظمها في ثنايا هذا البحث.

****

* الهوامش:

(١) صدر ضمن الأعمال المترجمة، مؤسسة نوفل، بيروت.

(٢) حول التفاصيل يرجع إلى حاوي (جبران خليل جبران)، ص٢٦٣ – ٢٦٥.

(٣) صدر ضمن الأعمال المترجمة، الطبعة نفسها.

(٤) كتاب النبي، ١٥٨– ١٥٩.

(٥) حديقة النبي، ٢٣.

(٦) يسوع ابن الإنسان، ضمن الأعمال المترجمة، ولاسيما صفحة ٢٥.

(٧) هكذا تكلم زرادشت، دار أسامة، بيروت ودمشق، ولاسيما الصفحة ١٠٥.

(٨) النبي، ٤١، ١١١.

(٩) حديقة النبي، ٢٣.

(١٠) فصوص الحكم، والتعليقات عليه لأبي علا عفيفي. التعليقات، ٦٢ – ٦٥، ١٠٣.

(١١) حديقة النبي، ٣٨.

(١٢) يقول ابن عربي، أبياتًا "ديوان ص١٠" منها قوله عن الوجود المحسوس:

يسبح في بحر بلا ساحلٍ   في حِندس الغيب وظلماته.

(١٣) حديقة النبي، ٢٩.

(١٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(١٥) يقول ابن عربي في ديوانه ص٤١٠:

مالنا منه سوى ما   قد علمتم من سماتِ
ونعوتٍ أظهرتهـا   محدثاتٌ، وصفاتِ

(١٦) حيدر، مدخل إلى دراسة الشعر الصوفي، ٢٠.
(١٧) حديقة النبي، ٣٠.
(١٨) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(١٩) يرى ابن عربي أن كل مخلوق كلمة، التعليقات على فصوص الحكم، ١٨١.
(٢٠) حديقة النبي، ٥٨.
(٢١) حول النَفَسَ الرحماني، فصوص الحكم والتعليقات عليه، التصدير، ٢٧- ٢٨.
(٢٢) حديقة النبي، ٥٨- ٥٩.
(٢٣) قبله تصور ابن عربي الوجود على صورة مملكة ووزيرين عندما تكلم على الصفات والأسماء ودورها في إظهار الممكنات في الفتوحات المكية.
(٢٤) حول الصفات والأسماء. فصوص الحكم؛ التصدير، ٢٩ - ٣٠، ومعجم مصطلحات الصوفية، ١٥٢ - ١٥٣.
(٢٥) حديقة النبي، ٥٩.
(٢٦) ولاسيما في كتابه "آلهة الأرض" ضمن الأعمال المترجمة.
(٢٧) حديقة النبي، ٦١.
(٢٨) يقول ابن عربي في ديوانه ص١٠١:

قل لمن رام إدراكًا لخالقه   العجزُ عن دركِ الإدراك إدراكُ

(٢٩) وهذا القول ينسب أيضًا إلى الرسول ﷺ، فصوص الحكم، الفص الإبراهيمي، ٨١.
(٣٠) حول مفهوم هذا المذهب يُرجع إلى الراشد؛ وحدة الوجود في الفكر العربي، ٣٢، ٤٦، ٥١ - ٥٢.
(٣١) مقدمة «حديقة النبي»، ١٤.
(٣٢) المصدر السابق، ٢٧.
(٣٣) حديقة النبي، ٣٧.
(٣٤) المصدر السابق، ٤٢.
(٣٥) حديقة النبي، ٤٢.
(٣٦) معجم مصطلحات الصوفية، ٢٤٦.
(٣٧) حديقة النبي، ٥١.
(٣٨) المصدر نفسه، ٥١.
(٣٩) حديقة النبي، ٥٢.
(٤٠) المصدر نفسه، ٥٦.

(٤١) يقول ابن عربي في ديوانه، ص٢٦٣

فانظره في شجرٍ وانظره في حجرٍ وانظره في كل شيء ذلك الله

(٤٢) حديقة النبي، ٤٦.

(٤٣) حديقة النبي، ٥٧

(٤٤) المصدر نفسه، ٨٥.

(٤٥) حاوي، جبران خليل جبران، ٢٢٢ – ٢٢٣.

(٤٦) حديقة النبي، ٤١.

(٤٧) حديقة النبي، ٦١.

(٤٨) المصدر السابق، ٤٥.

(٤٩) المصدر السابق، ٤٦.

(٥٠) المصدر السابق، ٣٣.

(٥١) حديقة النبي، ٥٥.

(٥٢) المصدر السابق، ٣٦.

(٥٣) يقول ابن عربي: عقد الخلائق في الإله عقائدًا وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه، التعليقات على فصوص الحكم، ٩٣، ٩٨.

(٥٤) حديقة النبي، ٦٧.

(٥٥) المصدر السابق، ٤٨.

* مصادر البحث ومراجعه:

- ابن عربي (محيي الدين): ديوان ابن عربي ، بولاق ١٨٥٥م – مكتبة لمثنى .
- الفتوحات المكية، دار صادر – بيروت.
- فصوص الحكم، والتعليقات عليه لأبي علا عفيفي دار الكتاب العربي، ط٢، بيروت، ١٩٨٠م.
- جبران (جبران خليل): الأعمال المترجمة – مؤسسة نوفل – بيروت. وتتضمن كتبه التالية: المجنون، التائه، النبي السابق، رمل وزبد، آلهة الأرض، حديقة النبي، يسوع ابن الإنسان.
- حاوي (خليل)؛ جبران خليل جبران ، دار العلم للملايين ، ط١ ، ١٩٨٢م.
- الحفني (عبد المنعم)؛ معجم مصطلحات الصوفية ، دار المسيرة ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٠م.
- حيدر (علي)؛ مدخل إلى دراسة الشعر الصوفي ، دار الشموس ، ط١ ، دمشق ، ١٩٩٩م.
- الراشد(محمد)؛ وحدة الوجود في الفكر العربي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٨٥م.
- نيتشه (فريدريك)؛ هكذا تكلم زرادشت ، دار أسامة ، دمشق وبيروت.